

# عالم جديد

في طيات هذا الحجم  
بقلم الأستاذ سيد قطب

أيما كانت النهاية الحربية لهذا النضال العنيف الذى تكتوى بلطاه أمم الأرض جميعا ، المحاربون منهم وغير المحاربين . فإن فى طياته عالما جديدا تتخض عنه الوقائع ، وهو اليوم جازين أخذت ملامحه فى التكون والظهور ، وسيولد يوم تضع الحرب أوزارها ، بل ربما تقف هذه الحرب بمناسبة مولده ، كما وقفت الحرب العظمى الماضية على مولد عالم "ويلسون" وشروطه الأربعة عشر . هذا العالم الذى هو فى طريق الأفول .

ويقلب على ظنى أن سيكون العالم الجديد جديدا بمعنى الكلمة ، وأنه سيختلف عن عالمنا الراهن فى سمات كثيرة — إن لم نقل : إنه سيبنى على أسس غير أسس هذا العالم — وأنه سيحدث انقلابا فى الأوضاع السياسية والاقتصادية ، وفى الأسس الاجتماعية والعائلية ، وفى التقاليد العقلية والروحية .

ومن واجبا — كما هو واجب كل أمة تريد الحياة والنماء — أن تنهأ للسير فى موكب العالم الجديد ، وألا نكون متخلفين عنه بسبب جهلنا لميزانه واتجاهاته السياسية والاقتصادية والاجتماعية والروحية ، أو مدبرين عنه متكرين له والشعوب كلها تسير فى موكبه !

وهذا يقتضينا كثيرا من اليقظة والتنبه للتيارات الفكرية ، وللسمات الموحية بشكل هذا العالم الذى تتخض عنه الأيام ، ومن تتبع التطورات السياسية والحربية فى كل بلاد العالم أو على الأقل فى المسكرين الكبيرين اللذين يتناحزان غير بعيد من مصر ، بل فى داخل حدودها !

ومن الخطأ أن نقف وقفة المتفرج بسبب أننا لا نشترك اشتراكا فعليا فى الحرب ، فقد لا تكون لنا يد فى تشكيل العالم الجديد ، ولكن ينبغى أن نحاول اختيار دورنا فى هذا العالم بعد الحرب ، بدلا من أن نرغم على أداء دور نجهله أو لم نستعد له .

وكذلك من الخطأ أن نقف موقف الانتظار الجامد أمام تطورات هذا الجازين بحجة أننا لا نعرف ملامحه وهو فى عالم النيب ، وأن التكهّن بالمستقبل فى هذه الأيام عسير ، فإن بعض هذه الملامح قد اتضح الآن ، وبعضها يمكن التخمين فيه والاستنتاج ، وهما على كل حال خير من موقف الجمود أو الانتظار .

إن المعسكرين الكبيرين — معسكر الديمقراطية ومعسكر الدكتاتورية — لا يتناحزان في هذه الحرب بالوسائل الحربية وحدها بل يعتمدان اعتماداً كبيراً على الأسلحة السياسية والاقتصادية، وما "النظم الجديد" الذي يلوح به المحور لدول أوروبا، و"النظم الجديد" الذي ترممه الديمقراطية وتبشر به في خطب إيدن وروزفست الأخيرة، إلا بعض وسائل الكفاح !

ومن خلال هذين النظامين تقبدي ملاح العالم الذي سيكون !  
وسأحاول في هذه الكلمة التكهّن ببعض ملاح الجنين الأساسية ورسم صورة تخطيطية لوجهه المرتقب، فقد تنفّعنا في توجيه سياستنا العامة وتفكيرنا في المستقبل القريب .  
فأما من الوجهتين السياسية والعسكرية، فأحسب أن التجربة قد دلت على فشل "الدويلات الصغيرة" التي خلقت لتكون سياجاً لبعض الدول الكبيرة من الوجهتين السياسية والحربية، وأن هذه الدويلات وسواها من الأمم الصغيرة ذابت أمام الهجوم الألماني الكبير ولو كانت كتلاً متحدة كبيرة لعز على العائنين فتحها في هذا الزمن الوجيز .

فهى (أولاً) لم تؤد الغرض منها وهي حصر الغول الألماني داخل الأسوار، وهى (ثانياً) جاءت بعكس هذا الغرض لأنها أطمعت هذا العول فيها لصفرها، وأمدته بالقوة فترة بعد فترة عند اقتحامها في حين أنه وقف عاجز مدة كبيرة حين انتهت هذه اللقيات وواجه الأسد البريطاني، ولا عرة بقلبه على فرنسا، فقد كانت أمة منحلة مضعضة مستعدة للتسليم !  
وقد بينت هذه الحرب بجلء أن الأمم الصغيرة لا تستطيع الحياة إلا بحالفة الأمم الكبيرة إذا لم تستطع أن تتجمع في اتحادات فتكون هى ممالك كبيرة، وكشفت بجلء عن ضعف الحماية الدولية القانونية أمام الوسائل الحربية، فلا بد من القوة المسادية لمقابلة القوة حين تصاب الفطرة البشرية بالانتكاس والخنون .

ومما لا ريب فيه أن الشعوب ستنتفع بهذه الدرس — أيا كانت نتيجة هذه الحرب — وستحاول الأمة الصغيرة تأليف اتحادات إذا لم تستطع الاندماج التام بسبب اختلاف العناصر وهذه إحدى سمات العالم الجديد .

وليس هذا مجرد تخمين، فإن الأمم الكبيرة نفسها بدأت ترى من مصلحتها أن تجمع أصدقاءها الصغار في كتل كبيرة، وأخذت تعدل عن سياسة التفريق التي كانت سياسة تقليدية لها في كثير من الفترات .

والاتحاد العربي الذي رحب به مستر إيدن وزير خارجية إنجلترا هو أحد هذه الاتحادات التي ستسمى الأمم الكبيرة في خلقها، بعد تجربة هذه الحرب، وقد أثبتت بجلء ضرر وجود الدويلات الصغيرة الضعيفة القوة، المحدودة الموارد .

فإذا اقتسما بأن هذه إحدى سمات العالم الجديد ، كان علينا واجب لأنفسنا وللعالم ، لا يجوز لنا تجاهله أو ترك فرصته السانحة تمر دون أن ننتفع بها . وينتفع العالم العربي بل العالم الإنسانى كله .

إن مصر ليست غريبة في العالم العربي ، بل هى الشقيقة الكبرى لشعوبه ، وهو يترسم خطاها و ينتفع بتجارها ، ويستضيء بنورها ، ويتطلع إليها فى حب وإعجاب وانتظار ، فكأنها فى الاتحاد العربى يجب أن يكون ملحوظا ، ويجب التمهيد له منذ الآن ، ولا يصح الانتظار حتى تضع الحرب أوزارها .

ومن واجب السياسة المصرية ألا يدعوا هذه الفرصة تغتلب من أيديهم انتظارا لنتائج الحرب الدائرة ، فها هى ذى حليقتنا الكبرى تبشر بالاتحاد العربى وترحب به والحرب دائرة وهى أعلم بمصائرنا لأنها هى المكنوية بناها ، وهى التى تقدر إموارها وموارد خصومها ثم نجد من هذا التقدير أن هناك أملا كبيرا فى النصر لها ولحلفائها .

ولعل التفكير فى هذه المهمة العظيمة التى لا تقتصر على السياسة الداخلية المحدودة ، ولا سياسة هذه الأيام القريبة ، بل تمتد إلى المستقبل كله ، وتجاوز الحدود الجغرافية الحالية إلى مساحات شاسعة . أقول لعل التفكير على هذا النحو خلق أن يحل من مشاكلنا الحزبية الداخلية الشئ الكثير ، ويوسع آفاق التفكير الحزبى القصير .

وأما من الوجهة الاقتصادية ، فاحسب أن العشرين عاما التى تلت الحرب الماضية قد أثبتت فشل سياسة الحواجز الحركية وسياسة " الاكتفاء الذاتى " من وراء هذه الحواجز كما أثبتت أن الشقاء العالمى ثمره ملازمة لسياسة الاحتكار وعدم توازن الموارد الاقتصادية والمواد الخاملة بين أُمم الأرض جميعا .

ومن خلال أسس النظام الجديد الذى يلوح به " هتلر " ، وخلال خطب " روزفلت " عن توزيع المواد الخاملة ، وخطب " تشرشل وإيدن " عن استعدادات الامبراطورية البريطانية للمساهمة و إنهاء الضيق العالم بعد الحرب بالمواد المخزونة فى أنحائها .

من خلال هذا كله نستطيع أن نقين صحة من سمات هذا الجحيم تنفعنا فى توجيه سياستنا الاقتصادية منذ الآن حتى لا تصطدم مشروعاتنا بالعالم الجديد فتخسر أو تتحطم وهى فى مرحلة التكوين .

نحن فى هذه الأيام نبنى تفكيرنا الاقتصادى ومشروعاتنا الصناعية والانتاجية بوجه عام على أساس ماوقع فى الحرب العظمى وما تلاها من السنين . وأجشى أن أقول : إن هذا موضع الخطر . وأن الواجب تغيير هذا الأساس ، لأنه لن يكون أساس العالم الجديد .

وأزيد هذا الاجمال وضوحا فاذكر أننا نضع الآن مشروعاتنا الاقتصادية والصناعية على أساس الحماية الجمركية ، وأكتفى بمثلين اثنين في هذا المجال :

أولهما — صناعة النسيج ، وهي في الغالب تقوم على أساس فرض ضريبة مرتفعة على المنسوجات الاجنبية ولا سيما اليابانية ، هذه الضريبة التي يؤديها المستهلك في الحقيقة .  
وثانيهما — زراعة القمح ، وهي في الغالب تعتمد على أساس فرض ضريبة مرتفعة على الدقيق الأجنبي ولا سيما الأسترالي ، هذه الضريبة التي يؤديها المستهلك كذلك .

ونحن الآن — محققون في سياسة الحماية الجمركية ، لأن العالم كله يصنع هذا الذي نصنع ، ولأن سياسة " الاكتفاء الذاتي " هي السائدة في شعوب كثيرة ، ولأن مواردنا الزراعية لاتتسع إلا لاثني عشر مليوناً من السكان بينما يبلغ عددنا ستة عشر مليوناً في طريقها إلى الزيادة السريعة فلا بد من موارد جديدة في عالم الصناعة تكافئ الزيادة الحاضرة والمستقبلية .

ولكن ينبغي بحوار هذا الواقع أن نلتفت للمستقبل . فكيف تكون الحال لو تخفض العالم الجديد عن نظام غير النظام الذي يسود عالم اليوم . ولو وزعت الخامات توزيعاً متوازناً وأزيلت الحواجز الجمركية أو خففت إلى حد كبير ؟

الذي يحصل أننا لا نستطيع وحدنا التمسك بالنظام القديم ، وأن كل مشروعاتنا التي قامت على أساس الحماية الجمركية تنهار أو تزعزع ، ويكون هذا بمثابة كارثة لاقتصادنا القومي لا تصمد لها مواردنا المحدودة .

فن واجب رجال الاقتصاد منذ اليوم أن يتحسسوا الاتجاه العالمي المقبل ، ويقدرُوا آثاره في مشروعاتنا الاقتصادية والصناعية ، ويجعلوا لهذه الآثار مكانها الملحوظ في كل مشروع .  
وأسلم خطة أن نراعى في مشروعاتنا الجديدة إمكان قيامها على فرض زوال الحواجز الجمركية وبطلان الحماية المصطنعة ، فالصناعة التي تتوافر لنا موادها الخام بأرخص مما تتوافر في البلاد الأخرى وتخفض نفقات إنتاجها العامة عن مثيلها هناك ، بحيث تكون في سوقنا وفي الأسواق المجاورة أرخص من نظائرها بعد تكاليف الشحن ، هي التي نضمن لها البقاء والدوام في جميع الأحوال ، لأن حياتها طبيعية تعتمد فيها على ذاتها .

أما الصناعات والمشروعات الأخرى التي تحتاج إلى حماية مصطنعة فن واجبنا أن نقلل منها انتقاء للهزات الاقتصادية فيما إذا تمخضت هذه الحرب عن عالم جديد متخفف من القيود ، كما تشير بذلك جميع المقدمات .

وأما من الوجهة الاجتماعية فيبدو أن الوحدة الاجتماعية في الشعب ، لن تكون هي الفرد كما كانت الحال في فرنسا ، ولن تكون هي الدولة كما هي الحال في الأمم الديكتاتورية . بل ستكون هي الأسرة .

ومعنى هذا أن الحرية الشخصية لن تشط وتوغل في الفردية كما شطت وأوغلت في فرنسا بعد الحرب الماضية إلى الحرب الحاضرة . لن يكون الرد وحدة المجتمع وعموده الفقارى ومحوره الذى يدور عليه ، لأن هذه الفردية المنحجرة من جميع القيود أضعفت من قوة فرنسا عندما اصطدمت بعدو منظم متحد الاتجاه .

ولن تكون الدولة كذلك هى محور الحياة بحيث يذوب الفرد فيها ويتلاشى ويصبح أداة من أدواتها كأية آلة توجهه حيث تريد بلا مناقشة ولا تفاهم ، فهذا النظام نكسة لان تطبيقها البشرية ولا تصبر عليها مهما بدا فيها من القوة والبريق .

ولكن ستكون الأسرة هى وحدة المجتمع ، سيكون الفرد لبنة من لبنات الأسرة ، وستكون الأسرة وحدة متماسكة فى بناء المجتمع ، وستبدل الدولة للأسرة حمايتها وتمهيلاتهما فتحولتها بالرعاية والتشجيع ، ويبدو أثر هذا فى النظم والتشريع .

وقد أخذت بعض الأمم فعلا بنظام الأسرة — كفرنسا الجديدة — وهذا النظام عند بعض الشعوب يحرم توزيع الملكية الزراعية التى تملكها الأسرة فيساعد هذا التحريم على بقائها متماسكة لاصقة بمورد حياتها كما تبدوا آثاره فى حقوق الأبوين على الأبناء حتى بعد سن البلوغ ، وفى عقاب الآباء والأمهات المهملين فى تربية أطفالهم وهكذا . . .

وقد كانت إنجلترا من بين الشعوب الديمقراطية هى المثل الأعلى لنظام الأسرة فى المجتمع ، فإليت الانجليزى حرم تحيطه القوانين والتقاليد بالقدامة كما تحيط المعابد ، وتوارث أمم الأسرة ولقبها نظام معترف به ، والى هذا من أهم أسباب صمودها المعجب أمام العاصفة المدمرة !

ومصر من هذه الوجهة فى وضع تحمد الله عليه ، لأن نظام الأسرة لم يتضعع فيها كما تضعع فى شعوب كثيرة بعد الحرب الماضية ، وذلك بسبب تقاليد الريفية القوية — هذه التقاليد التى حفظت كيانها القومى على عمر الأجيال .

ولكن هذا لا يعنى أن ليس عندنا ما يعاب من هذه الوجهة ، فتماسك الأسرة فى مصر تماسك فتلوى لم تهذب القوانين ولم يدخل عليه أى إصلاح . ومن الواجب أن يتجه تفكيرنا الاجتماعى إلى توفير الملكيات الزراعية الصغيرة وتشجيعها وحمايتها والاحتفاظ بمجد أدنى منها لا يجوز تقسيمه بل يعوض الورثة بالمال عن نصيبهم فيه ، ومن أهم الدعائم التى تحافظ على كيان الأسرة وتلم شملها وجود ملكية زراعية ومثل ملوك لها يحميها القانون من الحجز والضيايع .

وكذلك يجب أن يبرز القانون تبعات الوالدين فى صحة الأطفال وتربيتهم ، فيمتنع كثير من التشرذم الناشئ عن إهمال أولياء الأمور ، وتقل الأمراض والتشوهات الناتجة عن هذا الإهمال أو عن الأمراض الوراثية . فعقاب الأبوين اللذين يورثان طفلهم مرضا خبيثا كقيل يحوزهما قبل الزواج وبمده... وهكذا

وفي نظير هذا يجب أن تشجع الأمرة على الحياة اللائقة بالمعاونات المادية والأدبية التي لا يتسع المجال هنا لبيانها ، ولا يصير الاهتمام إليها في نظم الشعوب التي وضعت حياتها العامة على هذا الأساس .

وسمة أخرى من سمات المجتمع تقبلور الآن وتوضح من خلال النظام الحاضر ، هي سمة التضامن الاجتماعي بين الطبقات ، بين الممتنعين والمحرومين ، بين الأغنياء والفقراء . ومع توافر هذه السمة في المجتمع الانجليزي حتى قبل الحرب ، فإن الظواهر تدل على أنها ستخطو خطوات جديدة نحو الاشتراكية الديمقراطية على وجه من الوجوه ، وقد جاء في قرار عمال استراليا أنهم يتجهون هذا الاتجاه ولكنهم يستمرون في الحرب "بقصد الانتقام لما حدث في لندن" ونحن في حاجة إلى التروء من هذا الزاد ، فالمجتمع المصري من هذه الوجهة أشد المجتمعات الإنسانية اختلالا ، ومن الواجب أن نستعد منذ الآن — إن لم نبدأ بالفعل — في تحقيق التضامن الاجتماعي ، بإعفاء الطبقات الفقيرة من معظم الضرائب التي تقتطع الآن من أقواتها ، وإضافتها في صورة ضرائب متدرجة على أصحاب الإيرادات العالية . وكذلك بإلغاء الكثير من الضرائب غير المباشرة أي الضرائب الجمركية التي يؤديها الجميع ، إلى الضرائب المباشرة التي يتعين على الثروات الكبيرة أدائها كما هي الحال في إنجلترا .

وذلك التدبير تشير الوقائع بأنه التدبير الوحيد الواقى من الهزات الاجتماعية العنيفة والكفيل بتوازن المجتمع وتضامنه في العالم الجديد الذي يتمخض عنه الأيام .

وأما من الوجهة الروحية والخلقية ، فيبدو لى أن العالم الجديد سيجد نفسه مضطرا أن يأوى إلى ظل من الدين والخلق والروحانية بصفة عامة ، بعد ملاقى من الجهد المضنى والعناء القاتل في جهنم المادية وبجيم الإباحية .

وتبدو طلائع هذا الاتجاه في فرنسا المنحلة المريضة الغارقة في الشهوات ، كما تبدو في الاستمساك الشديد بالتقاليد السمحة في خطب روزفلت والدفاع عن المبادئ الإنسانية ضد البربرية المتكسدة إلى عالم الادغال وشريرة الغاب .

وهذا الاتجاه الجديد لا يكلفنا نحن المصريين أكثر من الاهتمام إلى روحنا العريقة وتقاليدنا الخالدة ، حينما نزيح عن بصائرنا هذه الفشاوة التي رانت عليها من غبار المادية الأوربية ، وسنجد في كنوزنا الروحية ثروة نقنات منها في العالم الجديد ، ثروة تمكنا من هضم الحضارة الأوربية المادية والانتفاع بها دون أن تفسد فطرتنا وتحيلنا آلات خشنة جافة كما أحالت كثيرا من لأوربيين .



هذه هي الخطوط البارزة في صورة العالم الذي يتمخض عنه هذا الجيم البشرى . فعلى أن تنهيا ونستعد ، وألا تشغلنا الأحداث الحاضرة مهما عظمت عن هذا المستقبل القريب ، سيد قطب